ماذا قدم تمام حسان للفكر اللغوي العربي ؟
قراءة في بعض نظراته اللسانية

What did Tammam Hassan contribute to Arabic linguistic thought?
A brief talk about some of his linguistic theories

الدكتور سليمان بوراس[1]
العنوان جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 1
البريد الإلكتروني: slimanebou@gmail.com رقم الهاتف : 0659378880

مُلخّص البحث من العلماء الكبار الذين قدموا للدرس اللغوي الكثير العالم تمام حسان، وما قدمه الرجل بصدق قل أن يوجد مثله، فمما قدمه للدرس اللغوي العربي في الجانب الصوتي تحديده لما كان موسعا في بعض الأصوات، كما أنه بين فوائد التنغيم، وبين درجاته وأنواعه، ومما قدمه في الدرس الصرفي تقسيمه الجديد للكلم العربي، فقد قسمه تقسيما سباعيا بدلا من الثلاثي والرباعي، اللذين كانا منشرين بين القدماء وبعض المحدثين، ومما قدمه في الدرس النحوي بيانه أن النحو ينبني على المعاني وعلى بعض الابواب النحوية، كما بين الفرق بين الزمن الصرفي والزمن النحوي المعتمد على السياق، كما أن من الجديد أيضا نظريته تضافر القرائن وهي النظرية التي يريد أن تكون بديلا عن نظرية العامل

الكلمات المفتاحية : تمام حسان / التنغيم / التقسيم السباعي / الزمن النحوي/ تضافر القرائن

One of the greatest scholars ever whose many sincere contributions to the arabic linguistics are considered to be unique and unprecedented. he determined the phonological side of the Arabic linguistics when it was expanded in some voices. Beside, he set forth the benefits of toning, and its degrees and types. In morphology, he set a new division in the Arabic word. He divided it into a sevenfold division instead of the triangular and quadrilateral, which were common among the ancients and some modernists. At the level of grammar, he showed that it is based on meanings

and some grammatical elements. Mr. Tammam showed the difference between the morphological tense and the grammatical tense based on Context. One of his recent theories is called linguistic contexts, a theory that he wants to substitute the theory of factor

Key words: Tammam Hassan / Toning / Sevenfold division / Grammar tense / linguistic context

ما أصعب الحديث عن رجال حينما تتكلم عنهم ترى نفسك قد قلت عنهم كل شيء، ولما تجمع أمورك وتقيّم ما قلته فيهم تجد نفسك لم تقل عنهم شيئا، والأمر في الحقيقة ليس لقلة ما كتبته عنهم، ولا لضحالة ما تحدثت به عنهم من أفكار، ولا لانتقاص من قدرهم حينما تحدثت، ولكن الأمر لأن هؤلاء من الذين لهم في كل مجال حضور ولهم في كل بقعة أثر، ومن هؤلاء الكبار الفقيد العالم الجليل تمام حسان رحمه الله.

فلا غروفي هذا ولا غرابة فهو منظّر ومفكر ورائد لغوي، خبِر تراث العربية وتزود منابعه الأصلية خير زاد، وعاصر النظريات والاتجاهات اللغوية الحديثة التي كانت سائدة إبان فترة الخمسينيات من القرن المنصرم، وبخاصة البنوية (البنائية) والوصفية، بل تتلمذ على أشهر رموزها وروادها، وفي مقدمتهم اللغوي الانجليزي فيرث، أستاذ علم اللغة العام بجامعة لندن، ومؤسس مدرسة لندن اللغوية (المدرسة الانجليزية) أو ما اصطلح على تسميتها بالمدرسة الاجتماعية البريطانية، فهو إذن نتاج مدرسة لغوية كان وما زال لها صداها وتأثيرها في الأوساط اللغوية العالمية[1]، وفوق كل هذا فقد اطلع بآخرة على أحدث النظريات اللغوية التي ظهرت أوائل النصف الثاني من القرن العشرين على يد عالم اللغة الأمريكي نعوم تشومسكي، والتي عرفت بالنظرية التوليدية التحويلية [2]، وهي النظرية التي ملأت سمع العالم وبصره في فترة من فترات الحياة اللسانية العالمية والعربية، وكان الرجل من الذين نقلوا هذه النظرية إلى الباحث العربي في وقت كان التواصل العربي الغربي مقصورا على بعض البعثات التي كانت ترسلها مصر إلى بلاد الإفرنج بدواعي متعددة ولأغراض متنوعة.

كان لهذا العالم تمام حسان آراء لغوية متميزة فرضت على الدارسين المحدثين أن ينظروا إليه على أنه مجدد من مجددي النحو العربي، بل ربما يوضع في مصف واحد مع ابن مضاء القرطبي صاحب كتاب الرد على النحاة، الذي ألفه ليقدم نظراته حول النحو العربي وأصوله، ولعل تمام حسان يتميز عن ابن مضاء، أن تمام حسان كانت ثورته وآراؤه النحوية موزعة على مستويات الدرس اللساني جميعا، فقد قدم طروحات جديدة في المستوى الصوتي وقدم مثل ذلك في المستوى الصرفي وقدم مثلهما في المستوى النحوي، وهذه الآراء هي ما نتوقف عنده بحول الله في هذا البحث القصير.

الجانب الصوتي :

قدم تمام حسان جهدا لا ينكر في المجال الصوتي من الدراسات اللسانية العربية الحديثة، فهو في هذا المجال يدرس منطلقا من معطيات علم الأصوات التي تصف الحركات العضوية لجهاز التصويت حين الأداء الكلامي أو الجهاز السمعي حين السمع، ويستعين الدارس بالقيم الخلافية بين الأصوات، فالباء والميم تشتركان في كونهما صوتين شفويين لكن القيمة الخلافية بينهما تكون في الصفات المختلفة كالجهر والأنفية وغيرها[3]، وهو أول من استنبط موازين التنغيم في اللغة العربية، وذلك في كتابه مناهج البحث في اللغة[4]"، والتنغيم فونيم ثانوي أو فونيم فوق تركيبي أو فوق قطعي[(5)]، ويقول تمام حسان متحدثا عن آلية حدوثه إنه " يمكن تعريف التنغيم بأنه ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام وربما كان له وظيفة نحوية هي تحديد الإثبات والنفي في جملة لم تستعمل فيها أداة الاستفهام فقد تقول لمن يكلمك ولا تراه (أنت محمد) مقررا ذلك أو مستفهما عنه وتختلف طريقة رفع الصوت وخفضه في الإثبات عنها في الاستفهام "[(6)]، فإذا تكلمت بصوت وطيءٍ فأنت تخبر بأن الذي تتحدث إليه هو الشخص المسمى محمدا، أما إذا تكلمت مصعدا الصوت فالكلام هنا يحمل معنى الاستفهام، فكأنك قلت له : أأنت محمد ؟ والملاحظ في هذا التمايز بين التركيبين، وبين النطقين للعبارة محل الدرس فقط هو أن واحدة نطقت بتنغيم صاعد، والأخرى نطقت بتنغيم هابط وذلك أحدث التباين في المعاني المقصودة في كل تركيب، والدارس اللغوي يعرف أهمية ما وصل إليه تمام حسان، فالتنغيم حامل لدلالات نفسية يمكن أن تقرأ بها هذه الظاهرة في المنظومة الكلامية إذ يرتبط التنغيم ارتباطا كبيرا بعمق المتحدث ونفسيته إذ " جوهر التنعيم أن يعطي المتكلم العبارة نغمات معينة تنجم نفسيا عن عاطفة يحسها، وفكريا تنم عن معني يعتلج في ذهنه، وعضويا عن عدد الهزات التي تسري في وتري الحنجرة"[(7)]، ولولا التنغيم لما كان المتحدث قادرا على توصيل المعاني

المقصودة بالدقة التي يريدها، وهو ذو مستويات متعددة في اللغات إذ إنه " تتنوع النغمات في اللغات بين النغمة الصاعدة والنغمة الهابطة والنغمة المستوية، وقد تفصل أكثر من هذه التفصيلات" (8)، حسب نظرة الدارسين وحسب انتمائهم إلى مدرسة أو أخرى، كما يُنظر إلى هذه التنغيمات أيضا بمنظار آخر، وذلك حسب أدائه للمعنى المقصود وعدم ذلك، ولما تعرض تمام حسان لتاريخ الدرس الصوتي العربي للتنغيم أنكر وجود البحث في الموضوع، وسجل رأيه بكل وضوح في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها في قوله : والتنغيم في العربية الفصحى غير مسجل ولا مدروس(9)،وكتابه الأصول نشره أول مرة العام 1955 ودرس فيه منهج الأصوات، ومنهج التشكيل الصوتي ومنهج الصرف، والمعجم والدلالة وهو منهج يثير الاهتمام والتفكير، وفيه أضاف إلى منهج الدراسة العربية شيئا جديدا[10]، والنظام الصوتي عند تمام يقوم البحث فيه على محورين، محور يربط الأصوات باللغة، ويسمى بعلم التشكيل الصوتي، ومحور يربط الأصوات بالكلام ويسمى بعلم الأصوات[11]، وفي دراسته تناول أسس تجاور الأصوات وقد أسماها بظاهرة التأليف، ومن النتائج التي توصل إليها أنه كلما تباعدت مخارج الحروف حسن تأليفها، وأن تجاور أحد المطبقات مع أحد الغاريات نادر جدا[12]

الجانب الصرفي :

وّأما النظام الصرفي فقد جعل تمام مكوناته ثلاث دعائم[13]: أولاها مجموعة من المعاني الصرفية كالاسمية والفعلية والحرفية ويرجع بعضها إلى التصريف كالإفراد والتكلم والتذكير، ويرجع بعضها إلى المعاني التصريفية كالمطاوعة وغيرها، وثانيتها طائفة المباني كالصيغ الصرفية واللواصق، وثالثتها طائفة القيم الخلافية مثلا بين شهم وضرب الوزن واحد والمعنى يختلف فهذا مصدر وذاك صفة مشبهة.

وتمام حسان أول من ارتضى التقسيم السباعي للكلم، وبرره من حيث المبني والمعنى[14]، وهو أول من قال بمبدأين هامين في وظائف أقسام الكلم هما: النقل، وتعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد، وفسر بهما من ظواهر الاستعمال ما كان مستعصيا على التفسير المقنع[15]، ومن خلال هذين الأمرين نجد أن تمام حسان قد قدم رؤية جديدة في علم الصرف لم يكن مسبوقا إليها.

الجانب النحوي :

وكان لتمام حسان نظرات في الجانب النحوي، يرى أن له مكونات ومجموعة من الأبواب النحوية، ومجموعة من العلاقات تشكل القرائن فهو يتحدث فيقول: أما الجانب النحوي فمكوناته طائفة من المعاني النحوية كالخبر

والإنشاء والطلب والنهي والأمر، ومجموعة من معاني الأبواب كالفاعلية والمفعولية والحالية، ثم مجموعة من العلاقات التي تكون قرائن معنوية كالنسبة والإسناد والتخصيص والجانب الآخر هوما يقدمه علم الصرف وعلم الأصوات للنحو ليستفيد منه، وأخيرا القسيم الخلافية كالمدح والذم والتقديم والتأخير[16]، كما أن من جهود تمام أنه أول من فرق بين الزمن الصرفي والزمن النحوي المعتمد على السياق، وذكر للنحو ستة عشر زمنا، كما أنشأ مفهوم الجهة وجعلها عنوانا على تعدد الزمن النحوي[17]

وللأستاذ تمام رأي في الوظائف للعناصر اللغوية، ولم يكتف بما سبق، فقد درس القرائن وقسمها إلى لفظية ومعنوية، ويرى أن القرائن اللفظية تودي وظيفة السبك وأن القرائن المعنوية تودي وظيفة الملاءمة والاتساق[18]،

أما اللغة بين المعيارية والوصفية ففرق فيه تمام حسن بين اللغة من ناحية البحث اللغوي وناحية الاستعمال اللغوي، إذ الاستعمال وظيفة المتكلم والبحث وظيفة الباحث، والاستعمال تطبيق لأسس معينة غير واضحة عند المتكلم والبحث تفتيش عن هذه الأسس حتى تكون واضحة عند الدارس [19]

مما قدمه تمام حسان مجددا أنه دعا إلى التخلي عن نظرية العامل وقال بسقوطها وقد سجل ذلك في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها حينما سجل عنوان سقوط نظرية العامل [20]، إذ يتفق جميع النحويين على أن العلامات الإعرابية أنما هي من تأثير العامل إلا قطربا فإنه يخالفهم في ذلك إذ يرى أن الحركات إنما جاءت فقط للتخفيف ولو كانت دالة على المعاني لما وجدنا ألفاظا متفقة الإعراب مختلفة المعاني[21]، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ومتحركين وساكن ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ولا في حشو بيت ولا بين أربعة أحرف متحركة لأنهم في اجتماع الساكنين يبطئون وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون وتذهب المهلة في كلامهم فجعلوا الحركة عقب الإسكان[22]، والحقيقة أنه لوكان الأمر كما قال قطرب بن المستنير لجاز أن يكون الفاعل مرة مجرورا ومرة منصوبا ولجاز أن تكون الألفاظ التي في محلات المفعولية مرفوعة أو مرفوعة مرة ومنصوبة مرة، إننا نلاحظ نظاما واحدا سلكه العرب الأولون الناطقون للغة لم يحيدوا عليه وبالتالي يثبت ذلك بطلان مقولة قطرب بن المستنير [23]، وقد صرح بخلاف ذلك أبو الفتح بن جني وغيره قال أبو الفتح في خصائصه بعد كلام في العوامل اللفظية والعوامل المعنوية : وأما في الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره [24]، وابن مضاء في دعوته هذه كان متأثرا بابن حزم الظاهر النصوصي الذي يقول: حمل الكلام على ظاهره الذي

وضع له في اللغة فرض لا يجوز تعديه إلا بنص أو إجماع، لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها والشرائع كلها والمعقول كله [25]

ضف إلى ذلك أنه أول من قال بفكرة تضافر القرائن مبطلا فكرة العامل النحوي[26]، ونظرية تضافر القرائن النحوية فكرة محكمة الوضع، متكاملة الجوانب هزت الدراسات الأصولية في النحو هزا عنيفا وفسرت بها لعض القراءات التي خرجت عن سنن العربية وكذلك الحديث النبوي الشريف[27]، إذ تتعامل كثير من العلوم باستعمال مصطلح القرينة، ففي الدراسات اللغوية نستعمل هذا المصطلح وفي الدراسات الفقهية يستعمله رجالها، وكذلك في الدراسات التي لها علاقة بعلم الكلام وإذا بحثنا عن معنى بالقرينة وجدناه الأمر الدال على شيء من غير استعمال فيه، والقرائن حالية ومقالية، وقد يقال لفظية ومعنوية [28]، ولعل تواجد هذا المصطلح في علوم كثيرة جعل التقسيمات تتعدد وتتنوع، وذلك تبعا للميادين التي تتجاذبه، ولهذا فإننا نجد هذا المصطلح تتقاطع في بعض فهومه علوم، كما تختلف تبعا للخصوصيات في فهوم أخرى[29] ومن أقسام القرينة كما يرى التهانوي[30] ما يلي :

القرينة اللفظية : وهي اللفظ الذي يدل على المعنى المقصود، ولولاه لم يتضح المعنى نحو قوله تعالى: [**اعْدِلُوا هُو أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**] (المائدة 08) فالضمير (هو) يعود إلى العدل، والمعنى العدل أقرب للتقوى، والذي وضح الضمير هو تقدم مادته في الاشتقاق وهو قوله اعدلوا [31].

القرينة المعنوية : وهي التي يحكُمُ بدلالتها المعنى وصحتُه، وذلك نحو قوله تعالى: [**وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**] أي سفينة صالحة [32]

القرينة العقلية : وهي التي تتضح من المنطق العقلي نحو: أرضعت الصغرى الكبرى ... ونحو قوله تعالى : [**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**] فإن العجل لا يشرب في القلوب وأن المعنى وأشربوا حب عبادة العجل [33]

القرينة الحالية :نحو قوله تعالى في سورة الكهف: [**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ**] (الكهف 16) فالتركيب لا يمنع أن تكون ما نافية غير أن الآية السابقة لها حددت الحال وهي قوله تعالى " **هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا** (الكهف 15) [34]

قرينة السياق والمقام: ذلك أن للمقام دورا في تحديد المعنى فقول القائل مشيرا إلى شخص ماثل أمامه: هذا رجل، فالمقام يجعل المخاطب يفهم أن المقصود بالخطاب هو هذا الشخص دون غيره.

حدد تمام حسان القرائن اللفظية في[35]: العلامة الإعرابية، والأداة، والنغمة والصيغة، والمطابقة والتضام، والرتبة، والربط، وهذه القرائن الثلاث الأخيرات: (التضام والرتبة والربط) هي التي سماها **القرائن العلائقية**[36]، وهي قرائن تتعلق بالتركيب ولا تتعلق باللفظ المفرد، والتركيب له علاقاته التي ينبني عليها، ولعل التسمية نشأت من هذا المنطلق .

فهومن خلال هذه الفكرة أول من أنشأ للنحو العربي نظاما متماسكا قوامه القرائن اللفظية والمعنوية، بعد أن كان النحو في أفهام الدارسين تحليلا إعرابيا فقط [37] كما أن تمام حسان يعد أول من أبرز فكرة الترخص في القرينة عند أمن اللبس، وربطها بالشواهد من كافة أنواع النصوص (القرآن، والحديث الشريف، والشعر، والنثر)[38]، يرى تمام حسان في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها أن اللغة تتشكل من ثلاثة أنظمة، النظام الصوتي، والنظام الصرفي، والنظام النحوي[39].

تمام حسان والعلامة الإعرابية

لا أحد ينكر هذه الصفة الفارقة للغة العربية عن كثير من اللغات غيرها، ولا أحد من دارسي اللغة العربية المتبحرين فيها يغيب عن ذهنه أنهم قالوا عن اللغة العربية إنها لغة معرِبة معرَبة، وهذه الصفة هي المتأتية من تواجد الحركات الإعرابية على أواخر الكلم، وهي التي من خلالها تتحدد المعاني اللغوية المقصودة، ولولا هذه الظاهرة في العربية لكنا مرغمين - في كثير من تعابيرنا - على أن يكون في التركيب تكرار أو يكون فيه شيء من التوضيح والتبيين لإزالة اللبس الذي يحدث فيه نتيجة تداخل المعاني أو إبهامها " فالحركة الإعرابية ظاهرة موجودة في العربية ولا يمكن لأحد أن ينكرها، وهذه الظاهرة تؤدي المعنى بذاتها وليس للعامل دور في المعنى الذي تؤديه "[40] .

وتختلف المدارس النحوية في نظرتها إلى أي المواضع هي أصل للظاهرة الإعرابية وأي هي فرع فمذهب البصريين مثلا " أن الإعراب أصل في الأسماء فرع في الأفعال لأن الاسم يقبل بصيغة واحدة معاني مختلفة وهي الفاعلية والمفعولية والإضافة، فلولا الإعراب ما علمت هذه المعاني من الصيغة وذلك نحو: ما أحسن زيدا تأتي بالنصب في التعجب، وبالرفع في النفي، وبالجر في الاستفهام فلولا الإعراب لوقع اللبس بخلاف الفعل، فإن الالتباس فيه لا يعرض، لاختلاف صيغه باختلاف المعاني"[41]، غير أن العلامة الإعرابية وحدها لا تكون معيارا لفهم الملفوظ بل لا بد من معينات أخرى، وإلى هذا الرأي تقريبا يميل الدكتور تمام حسان إذ يقول" ولا أكاد أمل ترديد القول: إن

العلامة الإعرابية بمفردها لا تعين على تحديد المعنى فلا قيمة لها بدون ما أسلفت القول فيه تحت اسم تضافر القرائن"[42].

وإذا تحدثنا عن دور العلامة الإعرابية في تحديد المعنى، فإنه قد يذهب الكثير من الباحثين خاصة في زماننا إلى أن العلامة الإعرابية ليست ذات قيمة، وأن ظاهرة الإعراب لا وزن لها في الوجهة المعنوية، وذلك كلام رد عليه الأولون لما تناولوا رأي قطرب بن المستنير بالدراسة، وله بينوا أن العلامة الإعرابية إنما جاءت للدلالة على المعاني التي تعتور الألفاظ وأكدوا أن الإعراب اختص " بالأواخر لأنه دليل على المعاني اللاحقة للمعرب "[43]، فهذا أبو القاسم عبد الرحمان بن إسحاق الزجاجي (339هـ) يقول : إن الأسماء لما كانت تعتريها المعاني وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة، ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني، جعلت حركات الإعراب تنبئ عن هذه المعاني وتدل عليها، ليتسع لهم في اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة " [44]، وقد تابعه في ذلك كثير من الباحثين المحدثين، فهذا الدكتور مهدي المخزومي يقول : والإعراب فيما نرى، بيان ما للكلمة أو الجملة من وظيفة لغوية، أومن قيمة نحوية، ككونها مسندا إليه أو مضافا إليه أو فاعلا أو مفعولا، أوحالا [45]، فالمنظومة الكلامية في غياب العنصر اللغوي الدال على الإعراب وهو العلامة الإعرابية الدالة على المعاني يمكن أن يؤثر على توجيه الفهم السليم للتركيبة وإن فقدان الحركات في كلمةٍ ما، لا بد أن يؤثر في توجيه فهمها "[46] ومن النماذج الدالة على قيمة العلامة الإعرابية في تحديد المعاني وتوجيهها، ما يروى أنه اجتمع الكسائي وأبو يوسف القاضي في حضرة الخليفة هارون الرشيد، فجعل أبو يوسف يذم النحو وأهله ويسخر منهم، فقال الكسائي وقد أراد أن يبين فضل النحو ومنزلة أهله : يا أبا يوسف أنت قاض، إذا جاءك رجلان أحدهما قال لك أنا قاتلُ غلامِك (بضم لام قاتل وجر ميم غلامك) والثاني قال أنا قاتلٌ غلامَك (بتنوين الضم على لام قاتل والفتحة على ميم غلامك) أيهما كنت تأخذ به، قال أبو يوسف آخذهما جميعا فقال له الرشيد : أخطأت يا أبا يوسف، فقال : وكيف ذلك ؟، قال الرشيد (وكان الرشيد عالما جليلا باللغة) : الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال : أنا قاتلُ غلامك (بضم لام قاتل وجر ميم غلامك) لأنه فعل ماض وأما الذي قال لك أنا قاتلٌ غلامك فإنه مهدد ولم يفعل، فحركة واحدة في الكلام غيرت حكما كاملا [47]، ومن ذلك قوله تعالى في سورة طه : ﴿ **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى** ﴾ (طه 129)، ففي هذه الآية لولا العلامة الإعرابية الواردة فوق اللفظ (أجل) ما كنا لنعرف أنها

معطوفة على اللفظ كلمة ولربما كنا تصورنا أن حقها النصب على العطف على لفظ لزاما، فالعلامة وحدها هي المائز الذي فصل بين الوجهين .

وكم من معاني التوكيد لا يتضح معناها إلا بالإعراب فانظر مثلا قوله تعالى :﴿ **وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ** ﴾ (إبراهيم 45)، فلو أننا أخذنا اللفظ (أنفسهم) دون ضابط نحوي وقرأنا الآية بوجهين كما يلي:

الوجه الأول: وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسَهم، على اعتبار أن لفظ (أنفسهم) منصوب لأنه مفعول به منصوب للفعل (ظلموا) ليس غير، وهذا هو المعنى الذي به وردت الآية .

الوجه الثاني: وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسِهم، فاللفظة (أنفسِهم) تابعة معنويا للفظ (الذين ظلموا) فهي توكيد معنوي واجب التبعية للمتبوع الذي هو في محل جر، فانظر كم غيرت الحركة الإعرابية من معنى للآية الكريمة، غير أننا يجب أن نشير إلى أن العلامة الإعرابية وحدها ليست المعول الوحيد الذي يعتمد عليه لتحديد المعاني وتوجيهها، بل لا بد من تضافر عوامل أخرى ليحدث المراد اللغوي، وإلى هذا الرأي تقريبا يميل تمام حسان الذي يبدي تأكيدا كبيرا على أن العلامة الإعرابية لها وزنها وقيمتها بل لها الحظوة الكبرى في تقديم المعاني، غير أنها لا بد أن تتضافر مع أخواتها لتكون المعاني متسقة فيقول :"ولا أكاد أمل ترديد القول : إن العلامة الإعرابية بمفردها لا تعين على تحديد المعنى فلا قيمة لها بدون ما أسلفت القول فيه تحت اسم تضافر القرائن"[48] ومن ذلك يرى الدكتور تمام حسان رحمه الله أنه " قد وقع النحاة ضحايا اهتمامهم الشديد بالعلامة الإعرابية حين رأوا النصوص تهمل الاعتماد على قرينة الحركة أحيانا فتضحي بها لأن المعنى واضح بدونها اعتمادا على غيرها من القرائن المعنوية واللفظية ومن أمثلة ذلك قالت العرب خرق الثوب المسمار " [49].

و" من المباني التي اهتم بها علماء العربية اهتماما بالغا العلامات الإعرابية في نهاية المعربات دون المبنيات حيث اعتبروها علامات على معان نحوية " [50]، من خلالها يمكن أن يفهم المعنى وتغيرها قد يحدث جديدا في المعنى الذي كان فتغير حركة الحرف داخل العنصر اللغوي يحدث التغير في المعنى فما بالك بأن تتغير حركة الحرف الأخير الذي هو مناط الحركة الإعرابية الدالة على المعنى عند الدارسين الذين يقولون بهذا الرأي و" لقد كانت العلامة الإعرابية أوفر القرائن حظا من اهتمام النحاة فجعلوا الإعراب نظرية كاملة سموها نظرية العامل [51]،

بينما يذهب الدكتور إبراهيم مصطفى مخالفا الرأي القائل بأن العلامات الإعرابية دوال على المعنى حين يقول : فلو أن الحركات كانت دوال على شيء في الكلام، وكان لها أثر في تصوير المعنى يحسه المتكلم ويدرك ما فيه من الإشارة ومن وجه الدلالة، لما كان الإعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة، ولا كان تعلمه بهذه المكانة من الصعوبة، وزواله بتلك المنزلة من السرعة "[52]، ويمضي الدكتور إبراهيم مصطفى إلى أبعد من ذلك، فبعد أن بين وجهة نظره إلى هذه النقطة من النحو العربي، وهي كما أسلفنا أنه تبدو له العلامات الإعرابية وسيلة فقط للتخلص من الثقل الموجود في الحركات، يتناول الحركات واحدة واحدة فيرى أن الضمة ليست إلا علما للإسناد ولا دلالة لها على المعنى ورفعها إنما هو إشعار للمخاطب أن اللفظ المرفوع هو المتحدث عنه فيقول الدكتور إبراهيم مصطفى " فأما الضمة فإنها علم الإسناد، ودليل أن الكلمة المرفوعة يراد أن يسند إليها ويتحدث عنها" [53]، ثم يتحدث عن الكسرة فيرى أنها لا دلالة لها على المعنى أيضا بل فقط إشارة إلى الترابط بين لفظين سبق أحدهما الآخر أيا كان ذلك الارتباط فيقول : " وأما الكسرة فإنها علم الإضافة، وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها، سواء كان هذا الارتباط بأداة أو بغير أداة "[54] والضمة والكسرة محظوظتان في نظر إبراهيم مصطفى خلافا للفتحة التي لا تكون إلا لأن العرب جاءت بها للتخلص من السكون فيقول: أما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شيء بل هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب، التي يراد أن تنتهي بها الكلمة كلما أمكن ذلك[55]، ومهما يكن من أمر في أن للعلامة الإعرابية دورا في تحديد المعاني أم أنها فقط للتخلص من ثقل النطق فقد " كانت العلامة الإعرابية أوفر القرائن حظا من اهتمام النحاة فجعلوا الإعراب نظرية كاملة سموها نظرية العامل"[56]، ويتحدث الدكتور مصطفى عن العلامات فيقول :" وإذا وجب أن ندرس علامات الإعراب على أنها دوال على معانٍ، وأن نبحث في ثنايا الكلام عما تشير إليه كل علامة منها ونعلم أن هذه الحركات تختلف باختلاف موضع الكلمة من الجملة وصلتها بما معها من الكلمات فأحرى أن تكون مشيرة إلى معنى في تأليف الجملة وربط الكلم"[57]

ومن خلال العلامات الإعرابية قد يصرف المعنى ويحول إلى معنى جديد لتغير الحركة الإعرابية عما يقتضيه الترابط النحوي أو التضام التركيبي[58]، ومما جاء في ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (يونس 23)، فمتاعَ منصوب على المصدرية، بفعل محذوف تقديره تمتعون، أو هو مرفوع على الخبرية لمبتدأ محذوف تقديره ذلك [59]، فانظر إلى أن حركة

النصب تقتضي معنى معينا هو بيان نوع المتاع في حين أن حركة الرفع تقتضي معنى آخر هو الخبر، وما من شيء أحدث ذلك التغير في المعنى سوى الحركة الإعرابية وفي قوله تعالى :﴿ **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾ (البقرة 196)، فالمعنى تحدده الحركة الإعرابية في لفظ العمرة بالرفع وبالنصب، ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** ﴾ (هود 69)، رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم عليه السلام حياهم بتحية أحسن من تحيتهم، لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون تجدده وحدوثه [60]، لأن الرفع يدل على الثبوت والاستقرار[61]، فالحركة الإعرابية وحدها غيرت معنى قد يعد كبيرا، وحمل هذا المعنى كله لا تحمله الحركة الإعرابية وحدها بل يصير محمولا على التركيب كله

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ (البقرة 37)، فالتلقي الاستقبال والتعرض للقاء، وآدم رفع بـ (تلقى) و(كلمات) نصب بها [62]، وقد قرأ بعض العلماء الآية بنصب كلمة (آدم)، وبرفع كلمة (كلمات)، وبين القراءة الأولى والقراءة الثانية فرق فتحول حركة الرفع من لفظ (آدم) إلى لفظ (كلمات)، هو تحول للفاعلية من الأول إلى الثاني، وتحول حركة النصب من لفظ (كلمات) إلى لفظ (آدم)، هو تحول المفعولية من لفظ (كلمات) إلى لفظ (آدم) وبين المعنى في العبارتين فرق واسع، والقراءة بالنصب لها وجه من الإعراب لكن المعنى فيها يختلف وفي قوله تعالى : ﴿ **اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ** ﴾ (البقرة61)، فحركة الإعراب الفتحة المفردة أو المكررة دليل على المفعولية [63]، غير أن بين حالتي التنوين وإفراد الحركة يحدث فرق في المقصود، فحين يكون الإعراب والصرف فالمعنى اهبطوا مصرا من الأمصار غير معين، والدليل على ذلك دخولهم القرية، وأنهم سكنوا الشام بعد التيه، وأن ما سألوه من المأكل من البقل والقثاء لا يكون إلا في الأمصار، أما حين يكون البناء، فإن المقصود مصر فرعون[64]، وفي قوله تعالى: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ (البقرة 124)، إبراهيم مفعول به مقدم منصوب بالفتحة وربه فاعل مرفوع للتعظيم بالضمة [65]، إنه ما كان لنا أن نعرف الفاعل من المفعول لولا أن الحركة كانت الدليل، نعم تفيدنا عقيدتنا في الفهم لكن غيرنا قد لا يستطيع أن يتبين ذلك لولا هذه العلامة الإعرابية المائزة بين المعنيين، ولفظ (الظالمين) لولا العلامة الإعرابية التي هي الياء ممثلة لموقع النصب على المفعولية ما كنا متبينين أن الذي وقع منه الفعل هو

لفظ (العهد)، وإن كان الفعل (نال) يفيد الجواز في أن يكون الأول والثاني فاعلين، فلوكان لفظ (الظالمين) مرفوعا لكان في موقع الفاعلية وكان من حيث المعنى صاحب القيام به وفي المعنى فرق كما نرى.

من خلال هذا العمل المتواضع يمكن لنا إن نقول إن عالما كتمام حسان لا يمكن أن يستوعب الحديث عنه مقال ولا مداخلة بل ولا كتاب فهو أوسع من ذلك وإمكانية أن نحصر الحديث عنه في مثل هذا ظلم للرجل بل وإمكانية أن نتحدث عنه في مداخلة من ملتقى لا تفيه حقه لذلك نقترح أن يخصص ملتقى كامل للحديث عنه

المصادر والمراجع

1. إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، الطبعة الثانية دون ذكر دار الطبع، القاهرة مصر العربية 1992 .
2. ابن جني الخصائص تحقيق محمد علي النجار دار الكتب المصرية .
3. ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، دار الكتب العلمية، دط، بيروت، لبنان دت.
4. ابن مضاء القرطبي الرد على النحاة تحقيق محمد إبراهيم البنا دار الاعتصام الطبعة الأولى 1979 .
5. أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وشارك في التحقيق زكريا عبد المجيد النوتي وأحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 1993.
6. أحمد زرقة، أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، دمشق سوريا، 1993.
7. أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق سورية، 1999.
8. بهاء الدين عبد الرحمان، الموازنة بين نظرية العامل ونظرية تضافر القرائن في الدرس النحوي.
9. بهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، دار الفكر للنشر والتوزيع .
10. تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، الطبعة الثانية، القاهرة مصر العربية، 2005.

11. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة طبعة 1994 المغرب .
12. تمام حسان مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، طبعة 1986، الدار البيضاء المغرب .
13. التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت لبنان 2006.
14. جلال شمس الدين، الأنماط الشكلية لكلام العرب، مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية 1995 .
15. خليل أحمد عمايرة، المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي، دار وائل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان الأردن 2004.
16. الزجاجي، الإيضاح في علل النحو تحقيق مازن المبارك دار النفائس الطبعة الثالثة 1979 بيروت لبنان.
17. الزمخشري (جار الله)، الكشاف تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1998.
18. السيوطي همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 1998 .
19. صائل رشدي شديد، عناصر تحقيق الدلالة في العربية، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، عمان الأردن 2004 .
20. عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا، عالم الكتب الطبعة الأولى، 2002 .
21. غازي مختار طليمات، في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، سوريا 2000.
22. غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عماد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان الأردن 2003 .
23. فاضل السامرائي، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 2000 .

24. كمال رشيد، الزمن النحوي في اللغة العربية، عالم الثقافة للنشر والتوزيع، عمان الأردن 2008 .
25. محمد محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 2006.
26. محي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع دمشق سوريا دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة، دمشق سوريا 1999.
27. مهدي المخزومي، في النحو العربي تقد وتوجيه، دار الرائد العربي، الطبعة الثانية بيروت لبنان1986.
28. هناء محمود إسماعيل، النحو العربي في ضوء لسانيات النص، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى بيروت لبنان، 2012.

1 عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا، عالم الكتب الطبعة الأولى، 2002، ص 7
2 ينظر المرجع نفسه، ص 7
3 ينظر تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة طبعة 1994 المغرب ص 35
4 عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا، عالم الكتب الطبعة الأولى، 2002، ص 30، انظر كتابه منهاج البحث في اللغة
5 - ينظر كمال بشر، علم الأصوات، ص 531.
6 - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 198، ينظر أيضا غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عماد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان الأردن 2003، ص 477 .
7 - غازي مختار طليمات، في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، سوريا 2000، ص 154.
8 - ينظر غانم قدوري الحمد، المدخل إلى علم الأصوات، ص 256وينظر أيضا، تمام حسان، مناهج البحث في اللغة ص199.
9 - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة طبعة 1994 المغرب ص 228.
10 ينظر عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا ص 45
11 ينظر عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا ص 192
12 ينظر عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا ص 207

13 ينظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها ص 35
14 عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا، ص 30
15 نفسه، ص 30
16 ينظر تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها دار الثقافة ص 36
17 عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا، ص 30
18 نفسه ص 44
19 ينظر نفسه ص 45
20 تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها دار الثقافة طبعة 1994 المغرب، ص 5
21 ينظر الزجاجي، الإيضاح في علل النحو تحقيق مازن المبارك دار النفائس الطبعة الثالثة 1979 بيروت لبنان، ص 70
22 ينظر نفسه ص 71
23 ينظر نفسه ص 71
24 ابن مضاء القرطبي الرد على النحاة تحقيق محمد إبراهيم البنا دار الاعتصام الطبعة الأولى 1979، ص 69، ينظر ابن جني الخصائص تحقيق محمد علي النجار دار الكتب المصرية، ج1 ص109
25 ينظر بهاء الدين عبد الرحمان، الموازنة بين نظرية العامل ونظرية تضافر القرائن في الدرس النحوي، ص 654
26 عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا، عالم الكتب الطبعة الأولى، 2002، ص 30
27 نفسه، ص 44
28 ـ ينظر التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج 3 دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت لبنان 2006، ص 575
29 ـ انظر تفصيل ذلك عند محمد محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 2006، ص 65.
30 ـ التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج 3، ص 575 .
31 ـ فاضل السامرائي، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 2000 ص 60.
32 ـ نفسه، ص 61.
33 ـ نفسه، ص 61.
34 ـ تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، الطبعة الثانية، القاهرة مصر العربية، 2005، ص 23.
35 ـ ينظر تمام حسان، الخلاصة النحوية، ص 80، ينظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 205 .
36 ـ ينظر أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق سورية، 1999، ص 231.

37 عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا، عالم الكتب الطبعة الأولى، 2002، ص 30،انظر كتابيه اللغة العربية معناها ومبناها والخلاصة النحوية
38 عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا، ص 30
39 ينظر تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص 32وما بعدها
40 ـ صائل رشدي شديد، عناصر تحقيق الدلالة في العربية، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، عمان الأردن 2004 ص 150.
41 ـ ينظر السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج 1، ص 57.
42 ـ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 207.
43 ـ ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج 1، دار الكتب العلمية، دط، بيروت، لبنان دت. ص 30.
44 ـ إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، الطبعة الثانية دون ذكر دار الطبع، القاهرة مصر العربية 1992، ص 52.
45 ـ مهدي المخزومي، في النحو العربي تقد وتوجيه، دار الرائد العربي، الطبعة الثانية بيروت لبنان1986، ص 67
46 ـ أحمد زرقة، أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، دمشق سوريا، 1993، ص 35.
47 ـ ينظر كمال رشيد، الزمن النحوي في اللغة العربية، عالم الثقافة للنشر والتوزيع، عمان الأردن 2008، ص 81، فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، ج 1، ص 31.
48 ـ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 207.
49 ـ نفسه، ص 233.
50 ـ جلال شمس الدين، الأنماط الشكلية لكلام العرب، ج 1، مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية 1995، ص 83.
51 ـ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 205.
52 ـ إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص و.
53 ـ نفسه، ص 50.
54 ـ نفسه، ص 50.
55 ـ نفسه، ص 50.
56 ـ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 205.
57 ـ إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص 49.
58 ـ ينظر خليل أحمد عمايرة، المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي، دار وائل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان الأردن 2004، ص 351.
59 ـ ينظر الهرري الشافعي، حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ج12، ص 200.
60 ـ الزمخشري (جار الله)، الكشاف، ج 1، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1998، ص 112، انظر فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، ج 1، ص 169.

61 ـ ينظر هناء محمود إسماعيل، النحو العربي في ضوء لسانيات النص، ص 89.
62 ـ ينظر ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، ج 1 ص 130، ينظر أيضا أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج 1 ص 321 .
63 محي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ج 1 ص 113.
64 ـ ينظر أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج 1، ص 397.
65 ـ ينظر بهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، ج 1، ص 157.